القصص

الوالد

للكاتب القصصى جى دو موپاسان

جان دوفالوا صاحب لى لا أفتأ أزوره الفينة بعد الفينة . وهو يقيم فى قصر له على ضفة جدول فى بعض الغياض ، وقد لاذ بهذا الكن بعد أن قصف وترف فى باريس خمسة عشر عاما سوية . وقد عرته بغتة ملالة من كل ما فى هذه المدينة من مناعم ومآدب ورجال ونساء وملاعب ، وجاء يعتزل فى هذه الدار التى فيها ولد وفيها نشأ .

وتمضى إليه اثنين أو ثلاثة من الصحب تقضى معه أسابيع معدودات ، ولقد كان سروره بنا إذ يلقانا بعد نأى ، بالغا شديدا ، وابتهاجه باسترجاع ما أفلت منه من حبور بعزلته إذ تتولى عنه جما وفيرا .

ولقد وفدت عليه فى الأسبوع الماضى فهش وبش . وكنا نقطع الساعات تارة جميعاً وتارة منفردين ، والعادة أن يقرأ هو واشتغل أنا بالنهار ، وحين تأخذ عين الشمس فى الاغتماض نقبل على السمر إلى أنصاف الليل .

وكنا فى يوم الثلاثاء الماضى ، وكان يوما حروراً متلظيا ، قد جلسنا فى جنح ليله نتأمل جريان الماء فى الجدول تحت أقدامنا ، وكنا نتساجل ما يتوارد علينا من أفكار شديدة الغموض عن النجوم الخائضة فى الماء وكأنها بين أيدينا تمرح سبحاً . كنا نتناقل ما تتمخض به أذهاننا من خواطر كثر غموضها واشتد اختلاطها وأحش إبجازها ، ذلك أن عقولنا شديد قصورها ، مستفحل ضعفها ، بالغ عجزها . أما أنا فقد كنت مشفقاً على الشمس المتوارية فى الحجب لدى الطفل . كنا نفكر فى هذه الكائنات المبثوثة فى هذه العوالم ، ومختلف أشكالها العجيبة التى يتقاصر دونها وهم الانسان ، وخواصها التى لا تدرك كنهها الفطن ، وأعضائها الخفية المحجوبة . والحيوان والنبات وكافة الأجناس وسائر الجواهر وشتى المواد ، مما لا تكاد ترتفع إليه أذهان الانسان .

وبينما نحن كذلك إذا بصوت على بعد يصيح :

ـ سيدى ، سيدى :

فقال جان :

هل يا با نيست

فلما اهتدى إلينا الخادم قال :

ـ العجرية يا سيدى

فجعل صاحبى يضحك كمن به مس ، ومما عهدته يضحك كذلك إلا نادراً ، ثم قال :

إنا إذن فى ١٩ يوليو ؟

ـ نعم يا سيدى

ـ إذن قل لها تنتظر وأعدها الطعام فانى عائد بعد عشر دقائق .

ولما انصرف الخادم أخذ صاحبى بذراعى وقال :

ـ فلتمش على مهل ، إنى قاص عليك قصة هذه المرأة :

منذ سبع سنين أى فى السنة التى حللت بها هنا : خرجت فى أصيل يوم أطوف فى الغابة . وكان يوماً طلقاً صافياً كيومنا هذا وجعلت أسير متئداً تحت أفنان الدوح أتأمل نجوم السماء من خلال أوراقها ، مستجليا لرئتى بليل نسمات الليل وطيب زهر الغابة .

وكنت قريب عهد بهجرى باريس . إذ تملكنى سأم شديد وعافت نفسى كل ما رأت عينى وأخذت منه بنصيب من كل سخيف وزرى ، وذميم مدة خمسة عشر عاماً .

وأمعنت فى السير وتوغلت فى مسالك هذه الغابة ومضيت فى فج منها عميق يؤدى إلى قرية جروزى على مدى غلوة من هنا ، وإذا بكلبى قد وقف فجأة ونبح ، فظننت أنه رأى ذئباً أو وحشاً ضارياً فدلفت متسللا كظيم الخطو ولكنى سمعت بغتة صراخاً علا ، صراخ إنسان يستغيث مختنقا تتمزق له نياط القلوب من رحمة . فما شككت أنه رجل يغتاله مغتال فى خيلة فعدوت لنجدته ويممنى هراوة غليظة ضربتها مردية

دنوت من هذا الصراخ الذى كان ينجلى كلما قاربته ولكنه خفيض مع ذلك مكظوم ، كأنه صادر من بيت ، وربما من خص حطاب ، وكان كلبى بوك يتقدمنى على قيد خطوات تارة يعدو ، وتارة يقف ، ثم ينطلق انطلاق السهم هائجا حنقا مسترسل الهرير ولم نلبث أن برز لنا كلب آخر أسود عظيم الهيكل كأن عينيه جمرتان قد كشر عن أنياب عصل يلمع بين شدقيه بياضها

فهممت أن أهوى عليه بهرواتى ولكن بوك سبقنى إليه فتلاحما

وتصارعا وتجاولا ، ومضيت أنا قدما ، وإذا بى أكاد أتعثر بجواد منطرح فى الطريق ، وإذ وقفت مبهوتا أتأمل هذه الدابة لمحت عربة أمامى ، بل يتاطائفا ، أحد مساكن هؤلاء الباعة المتجولين

من ههنا كان مصدر هذا الصراخ الفظيع المتلاحق . ولما كان الباب من الناحية الأخرى ، فقد درت بهذه العربة واندفعت أرقى الدرجات الثلاث الخشبية وأنا أهم بأن أصرع المعتدى بهراوتى

ولكنى شاهدت عجبا ، والتبس على الأمر فلم أفقه لأول وهلة شيئا : هذا رجل قد جثا على الأرض كأنه يصلى ، وعلى الفراش الذى استوى فى جوف هذه العربة شىء قد جثم لا سبيل إلى تمييزه : بشر نصف عار قد انطوى على نفسه وهو يتلوى كالثعبان لا أرى وجهه ، يميد ويضطرب وكأن صراخه خوار ثور

فاذا هى امرأة تعانى آلام الوضع

فما إن أدركت كنه الأمر وتبين لى ماغمض من حقيقة هذا الحادث الذى كان عنه هذا الصراخ حتى اذنتهما بوجودى ، فجعل الرجل وهو يشبه أهالى مارسيليا يسألنى ملحا ذاهب اللب أن أغيثه وأغيثها وهو يوائتنى بكلام لا آخر له على الوفاء والذكر الجميل ، بما أقضى منه عجبا . ولم أك قد رأيت ولادة قط ، ولا أسعفت أنثى قط فى مثل هذه الأحوال ، وذكرت له ذلك فى بساطة ، وأنا أنظر ذاهلا إلى هذه التى تصم الآذان جلجلة صراخها فى هذا الفراش

ثم سألت الرجل الواهن الحسير وقد استرددت جأشى : ما بالك لا تذهب إلى القرية القريبة ؟ فقال إن جواده هوى فى حفير فانكسرت ساقه فهو رازح لا يريم

ــ فقلت له : ياهذا لا بأس عليك . الآن نحن اثنان . إنا ستعاون فى جر العربة بامرأتك إلى بيتى .

ولكنا لم يسعنا إلا الخروج إلى الكلبين ، إذ علا هريرهما وما فصلناهما إلا بضرب بالهراوة شديد كاد يخمد أنفاسهما ، ثم خطر لى أن أشدهما بين أقدامنا إلى العربة استعانة بهما ، هذا يمنة وذاك يسرة وما انقضت عشر دقائق حتى كنا على تمام الأهبة . وأخذت العربة تسير الهوينا ، فترج ـ باهتزاز عجلاتها فيما تخط فى الأرض ممعنة من أخاديد ـ تلك المرأة المسكينة الممزقة الأحشاء

وبالهامن طريق! كنا نسير لاهثين لنازفير مرتفع ، وعرق ناضح ، نزلق حينا ، وحينا نقع ، بينما الكلبان المسكينان يزفران بين أرجلنا كزفير النار

وقضينا ثلاث ساعات حتى بلغنا القصر ، وإذ دنونا من الباب انقطع الصراخ داخل العربة . وإذا الأم والمولود فى أحسن حال ، وأرقدنا الأم وطفلها فى فراش وثير . ثم ركبت عربتى لأستحضر الطبيب بينما كان صاحبنا المارسيلى وقد اطمأنت نفسه ، يلتهم الطعام فى شراهة ويحتسى حتى لايعى من سكر ابتهاجا بهذه الولادة السعيدة

وكانت بنتا

وأقام عندى هؤلاء النفر ثمانية أيام ، والوالدة وهى السيدة أمير لها بصر بالغيب عجيب ، وقد بشرتنى بحياة مديدة ومناعم عديدة

وفى العام الذى بعده وفى مثل هذا اليوم لدى الغسق جاء الخادم الذى حضر من هنيهة يدعونا ، وكنت فى حجرة التدخين بعد طعام العشاء ، يقول : « غجرية العام الماضى جاءت تشكر سيدى »

فأمرت بدخولها ، وعرتنى دهشة إذ رأيت بجانبها غلاما بالغا أشده ، ممتلئا شحما ولحما ، أشقر اللون من أهالى الشمال ، فسلم على ثم جعل يقول كزعيم لطائفته إنه علم ما كان من إكرامى للسيدة المير ، وأراد أن لاتمر هذه الذكرى دون أن يفدا للشكر والاعتراف بيدى عليهما

وقد أكرمت مثواهما وأمرت باحضار الطعام لهما فى المطبخ وأوفرت قراهما ليلتهما ، واحتملا فى الغد

وهكذا فى كل عام فى نفس اليوم تفد هذه المرأة مع مولودها ذاك ، وهى طفلة رائعة الحسن ، وفى كل مرة مع . . . رجل جديد . إلا واحدا منهم فقط هو من أهالى أوفرنيا وقد بالغ فى شكرى وأجزل لى الثناء ، حضر معها حولين متتاليين . والصبية تدعوهم جميعا « بابا » كما نقول « سيدى » عندنا

وكنا بلغنا القصر فلمحنا أمام السلم ثلاثة أشخاص فى انتظارنا وخطا أطولهم نحونا بضع خطوات وحيانا أحسن تحية ثم قال :

ــ سيدى الكونت إنما حضرنا اليوم لنبدى لك آيات الشكر . . .

أما هذا الرجل فكان بلجيكيا

ثم تكلمت بعده أصغر الثلاثة بتلك اللهجة المدربة المتكلفة فى الأطفال إذ يلقون عليك تهنئة أو ثناء

أما أنا فقد أبديت البساطة وانتحيت بالسيدة المير ناحية وبعد حديث قصير قلت لها :

ــ أهذا أبو طفلتك ؟

ــ كلا ياسيدى

ــ أمات أبوها ؟

ــ كلا ياسيدى . ما نبرح يلقانى وألقاه أحيانا . وهو من رجال العسس

ــ عجبا ! أليس هو إذا ذاك المارسيلى الأول صاحب يوم الولادة ؟

ــ كلا ياسيدى . ما كان ذاك إلا وغداً زنيما سلبنى مدخر مالى

ــ ورجل الدرك والد ابنتك الحقيق أيعرف ابنته ؟

ــ نعم يا سيدى ، بل هو شديد الحب لها ، ولكنه لايستطيع تعهدها ، إذ له من امرأته أولاد غيرها

أحمد أبو الخضر عنبر